الصحوة .. وهموم الوطن العربى والإسلامى

نظرة شاملة

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

● كثرة همومنا :

أما الصحوة الإسلامية فقد عرفناها :

وأما (هموم الوطن العربى) فهى تذكرنى بقول الشاعر :

ولو كان همًا واحداً لاحتملته ولكنه هم وثان وثالث !

وإذا ناء شاعرنا بهموم ثلاثة ، فكيف إذا كانت همومنا لا تعد بالآحاد ، بل بالعشرات والمئات ؟! وغدونا ونشيدنا المفضل يتمثل فى قول أبى الطيّب :

رمانى الـــدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبـــــال

فصرت إذا أصـــابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

ومع تكاثر همومنا وأرزائنا ، وتزاحم السهام التى تتناوشنا ، لا يجوز أن نستسلم للأمر الواقع ، ولا ينبغى لنا أن نيأس من العلاج ، وقد تعلمنا من نبينا- كما تعلمنـــا من سنن الله فى الكون - أن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، وهذا يصدق على الأدواء الاجتماعية والمعنوية كما يصدق على الأدواء الفردية والمادية .

المهم أن نلتمس الشفاء ، ولا نسكت على المرض ، وأن نلتمسه ممن يعلمه ، حتى لا نعالج داء بداء مثله أو أشد منه خطراً ، ومن قواعدنا الفقهية الشهيرة : إن الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه . وشاعرنا العربى يقول :

إذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما أعلك ما شفاك !

ولا يتم هذا إلا إذا أحسنا تشخيص الداء ، وعرفنا أسبابه الحقيقية ، وأردنا علاجه بصدق ، وأن يكون العلاج استئصالاً للمرض ، وليس مجرد أقراص تسكن الألم إلى حين ، أو مراهم تداوى السطح ، ولا تنفذ إلى ما وراء ذلك من الأسباب الأساسية الباطنة .

* * *

● أصول همومنا سبعة :

إن همومنا التى نشكو منها كثيرة كثيرة ، ولكن أصـــولها يمكن أن تتركز فى عدد محـدود ينبغى أن نتفـــق عليه . فما هى أصـــول هذه الهموم؟

فى ندوة (التراث وتحديات العصر) التى أقامها مركز دراسات الوحدة

OBEIKAN.COM

العربية بالقاهرة ، فى صيف سنة ١٩٨٥ م حدد د . سعد الدين إبراهيم التحديات فى أربعة أمور ، أطلق عليها رابوع التخلف والاستغلال والاستبداد والتبعية .

وأنا أضيف إلى هذا الرابوع ثالوثًا آخر ، يتمثل فى التخاذل والتمزق والتسيب لتصبح الهموم سبعة كاملة ، أسردها فيما يلى :

١ - **هم التخلف المزرى** ، الذى يجب أن نتحرر منه سعيًا إلى التقدم والتنمية .

٢ - **هم الاستغلال أو التظالم الاجتماعى** ، الذى تئن تحت أثقاله الفئات الضعيفة والكادحة وواجب المسارعة إلى علاجه تحقيقًا للعدالة الاجتماعية .

٣ - **هم الاستبداد والطغيان الداخلى** ، الذى أصبح شرًا من الاستعمار الخارجى ، ووجوب مقاومته ، سعيًا إلى الحرية والشورى .

٤ - **هم التغريب والتبعية الفكرية والاجتماعية والتشريعية** وواجب التحرر منها بحثًا عن الاستقلال والأصالة .

٥ - **هم التخاذل المذل** أمام العدوان الصهيونى المتغطرس الذى يجب أن نتجاوزه سعيًا إلى النصر والتحرير .

٦ - **هم التفتت أو التمزق المخزى** الذى فرق الوطن الواحد ، والشعب الواحد ، إلى أوطان وشعوب متجافية ، بل متعادية ، وهو ما يجب أن نتخلص منه طلبًا للوحدة والتضامن .

٧ - **هم التحلل والتسيب الخلقى** ، الذى عشش فى وطننا الكبير ، بمختلف صوره ، والذى يجب أن نتطهر منه سعيًا إلى التماسك والاستقامة .

فكيف تنظر الصحوة الإسلامية إلى هذه الهموم ؟ وإلى أى حد تهتم بها وتسعى إلى علاجها ؟ وما نوع العلاج أو الحل الذى تقدمه فى سبيلها ؟

* *

● النظرات المرفوضة لتشخيص أدوائنا :

إن للصحوة الإسلامية نظرة خاصة فى تشخيص أدوائنا ، ووصف العلاج

لها ، وهى نظرة تتسم بالشمول والعمق . وهى ترى أن الخطأ أو الخطر فى علاجنا لأوصاب وطننا العربى والإسلامى يكمن فى فقدان النظرة الشمولية العميقة لهمومنا ويتمثل ذلك فيما يلى :

* *

١ - النظرة الجزئية :

يتمثل الخطأ والخطر فى (النظرة الجزئية) التى تفصل أجزاء الكل بعضها عن بعض ، وتنظر إلى كل أمر منفصلاً عن غيره فهى تنظر إلى الاقتصاد منفصلاً عن السياسة ، أو إلى التشريع معزولاً عن التربية أو إلى المجتمع بعيداً عن الفرد .

والواقع يقول : إن الحياة كلها نسيج واحد متصل اللحمة بالسدى ، لا ينفصل فيها جانب عن جانب ، إلا من باب التجريد الذهنى ، والتقسيم النظرى .

ولقد قال أحد السياسيين بحق : « إن الاقتصاد أعظم خطراً من أن يترك للاقتصاديين وحدهم ! وهذا ما يقوله الاقتصادى أيضاً : إن السياسة أخطر من أن تترك خالصة للسياسيين » . وهو ما يمكن أن يقوله السياسى والاقتصادى عن التربية مثلاً : إنها أعظم وأخطر من أن تترك للتربويين وحدهم .

ذلك أن كل واحد من هذه الجوانب يؤثر فى الجوانب الأخرى سلباً أو إيجاباً ، ولا يسوغ بحال أن يستقل منها بالعمل وحده ، دون أى صلة بالمجالات الأخرى فلا تعاون ولا تنسيق .

ومنذ سنوات قريبة عقد مكتب التربية العربى لدول الخليج ندوة مهمة موضوعها : (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين ؟) ظهرت بحوثها فى عدة أجزاء .

ومن الواضح أن التربويين يريدون من الإعلاميين ألا تهدم الأجهزة الإعلامية فى الليل ما تشيده المؤسسات التربوية فى النهار . وأن يتعاون الفريقان على بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح .

ولا شك أن للتربويين مطالب من السياسيين والاجتماعيين والعلميين والمهنيين وكل الفئات ، مثل ما طالبوا الإعلاميين .

كما أن للفئات الأخرى مطالب عند التربويين أيضاً . فإذا أردنا التغيير

والإصلاح حقًا فلننظر : ماذا تريد شرائح المجتمع وفئاته المختلفة بعضها من بعض؟

لهذا تحاول الأيديولوجيات الثورية دائمًا أن تسيطر على الحياة كل الحياة لتوجهها جميعًا ، وتؤثر فيها جميعًا وفق فكرتها ، وإلا فإن الإعلام قد يهدم ما تبنيه التربية ، والمدرسة قد تنقض ما يشيده المسجد ، والسياسة قد تهدم ما يبنيه كل هؤلاء ، فإذا لم تكن هناك نظرة متكاملة لحياة المجتمع وأهدافه ، وقيمه العليا ومصالحه الكبرى ، ومحاولة التنسيق بين مختلف المؤسسات والأجهزة ، فإن جهود البناء والتعمير ستضيع سدى ، وتذهب جفاء ، ما دامت معاول الهدم تعمل فى الجانب الآخر ، أو الجوانب الأخرى ، وهو ما شكا منه الشاعر قديمًا بقوله :

متى يبلغ البنـــيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟!

* *

٢ - فى النظرة السطحية :

ويتمثل الخطأ والخطر أيضًا فى (النظرة السطحية) التى لا تنفذ إلى الأعماق . وأبرز ما يمثل هذه النظرة اعتقادنا أن همومنا ومشكلاتنا مادية محض ، وأننا نستطيع أن نعالج الماديات بعيدًا عن المعنويات ، وأن حديث الإيمان والأخلاق ، يجب أن يطرح جانبًا إذا تحدثنا عن مشكلات السياسة أو معضلات الاقتصاد ، أو مصائب التخلف ، وطموحات التنمية ، فلا يصلح لرجال الاقتصاد ، وزعماء السياسة وخبراء التنمية ، أن يتحولوا إلى (دراويش) يتحدثون عن الدين والقيم والفضائل والأتون مستعر الأوار حول غول الديون ، وشبح الجوع ، وخطر العدو ، وفساد مرافق الحياة ! .

ومن السطحية أيضًا أن نحسب أننا بمجرد أن ننادى بالإسلام شعارًا ، أو نغير مواد القانون الوضعية بمواد إسلامية ، يطلع علينا الصباح ، وقد حلت كل مشكلاتنا وشفينا من كل أدوائنا ، غافلين أن لله فى خلقه سننًا لا تحابى ولا تلين ، منها : أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن التغيير يحتاج إلى عمل طويل النفس ، وتوجيه متعدد الجوانب متنوع الوسائل ، وتربية عميقة الجذور ، مديدة المراحل ، وأن الإصلاح يحتاج إلي تخطيط مدروس ورؤية واضحة للأوجاع وأسبابها وإعداد للمستقبل فى ضوء الاستفادة

من دروس الماضى وإمكانات الحاضر ، كما يحتاج الإصلاح إلى رجال يجمعون بين القوة والأمانة ، يقودون سفينة التغيير إلى بر الأمان .

إن كثيراً من المتدينين – بل من الدعاة الدينيين أنفسهم – يقرؤون بعض الآيات من القرآن الكريم ، ويفهمونها فهماً مغلوطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(١). وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾(٢). وقوله : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً ﴾(٣) . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾(٤) . فهم يحسبون الإيمان والتقوى والاستقامة والصلاح مجرد أداء الشعائر،والإكثار من التسبيح والتهليل والتكبير، والامتناع عن المحرمات المعروفة من الزنى والسكر ، وأكل لحم الخنزير ونحوها .. مع تغييب العقل ، وإهمال العلم ، وإغفال العمل ، ومجافاة السنن، وانتظار البركة من السماء ، والسماء – كما قال عمر رضي الله عنه – لا تمطر ذهباً ولا فضة .

ولو رجعوا إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل الذين أورثهم الله الأرض ، ومكن لهم فيها ، وجعلهم أئمة ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، لعرفوا أنهم لم يحققوا ذلك بالجهد ، والعرق ، والعلم والفكر الدؤوب ، والجهاد الصبور ، وهكذا فهموا الإيمان والتقى والاستقامة والصلاح ، فمزجوا بين الروح والمادة ، ووازنوا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وجمعوا بين حظ النفس من الحياة ، وحق الرب فى العبادة ، فخدموا الدين بالدنيا ، وأصلحوا الدنيا بالدين ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾(٥) .

* *

---

(١) سورة الأعراف : آية ٩٦ .
(٢) سورة الطلاق : آية ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الجن : آية ١٦ .
(٤) سورة الأنبياء : آية ١٠٥ .
(٥) سورة آل عمران : آية ١٤٨ .

OBEIKAN.COM

٣ – النظرة القطرية (الإقليمية) :

ويتمثل الخطأ فى النظرة الإقليمية التى يقول كل قطر أو كل إقليم فيها : نفسى نفسى ، أو بلدى أولاً ، ويتوهم أنه يستطيع أن ينجو بنفسه لو عاش وحده ، وانعزل فى دائرة حدوده ، حتى لا يحمل هموم الأشقاء من إخوانه ، ولا يعنّى نفسه بالإسهام فى حل مشكلاتها .

إنها الأنانية الحمقاء التى نراها فى عضو الأسرة ، الذى يهجر أهله ، ويقطع رحمه ، ليعيش وحده مستأثراً بما لديه من نعمة وثروة ، وينسى أنه عند الشدائد لا ينجده ولا يحميه إلا أهله . إن الفرد بمفرده ضعيف ، والقطر بمفرده أيضاً ضعيف .

وهيهات هيهات أن يستطيع قطر واحد – مهما بلغ حجمه أو غناه – النجاة وحده والوصول وحده ، فى عصر التكتلات الكبيرة ، التى لا مكان فيها للصغير إلا أن يكون مكان الذيل من الرأس ، أو العبد التابع من السيد المتبوع .

إن الإسلام يؤكد دائماً أن يد الإسلام مع الجماعة ، وأن الخير فى الاجتماع والاتحاد ، وأن الشر فى الفرقة والشذوذ ، وأن الذئب « إنما يأكل من الغنم القاصية » وأن « لا صلاة لمنفرد خلف الصف » . وصدق الله العظيم : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١] .

* *

٤ – النظرة الآنية :

ويتمثل الخطأ كذلك فى (النظرة الآنية) العاجلة القصيرة النظر ، التى تعنى بهموم الحاضر فى غفلة عن المستقبل ، كأن المهم عندها أن تتخفف من عبء هذه الهموم التى يؤودها حملها ، ولا عليها إذا ألقت الحمل من فوق كاهلها ليحمله الجيل التالى ، أو الأجيال التالية ، أضعافاً مضاعفة .

فهى فى الواقع نظرة موغلة فى الأنانية ، لا تليق بنظرة الأبوة الحانية ، التى تجعل الأب يشد الحجر على بطنه من الطوى ،ليوفر اللقمة لولده وفلذة كبده .

ولهذا كان من العيب كل العيب على هذا الجيل أن يأكل رزق الأجيال

---

(١) الصف : آية ٤ .

القادمة مما أفاء الله به من النفط وغيره من المعادن ، أو مصادر الرزق الموقوتة بزمن يقصر أو يطول ، لكنه محدود .

كما لا يجوز له أن يتوسع فى الاستهلاك ، ويستقرض المليارات بالربا الماحق الممحوق ، ليحمّل أعباء هذه الديون للأجيال التى لم تطرق بعد أبواب الحياة .

قد جاء عن أبى بكر رضى الله عنه ، قوله : لا يعجبنى الرجل يأكل رزق أيام فى يوم واحد !

يعيب الصدّيق – بقوله هذا – الرجل المتلاف الذى يسرف فى النفقة ، ويتوسع فى الاستمتاع ، حتى يستهلك فى يوم واحد ، ما كان يمكن أن يكفيه أياماً ، وقد يعتريه بعد السعة ضيق ، فيندم على سرفه فيما فات ، ولات ساعة مندم .

وإذا كان هذا معيباً فى شأن الفرد ، فهو أشد عيباً فى شأن المجتمع ، حين يأكل رزق أجيال فى جيل واحد ، كالأب المسرف الذى ينفق كل ثروته فى حياته ، ويدع ورثته من بعده ، ولا مورد لهم ، يقيهم هوان العيش ، وذل السؤال ، وهو ما منعه النبى ﷺ ، حين نهى سعد بن أبى وقاص ، أن يوصى بماله كله أو ثلثيه أو نصفه – وهى وصية فى البر والخير – ولم يأذن له بأكثر من الثلث ، قال : « والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » متفق عليه .

إن عقلية (أحينى اليوم ، وأمتنى غداً) عقلية متخلفة ، يرفضها المنطق ، ويرفضها الخلق ، ويرفضها الإسلام) .

* *

٥ – النظرة التلفيقية :

ومثل ذلك فى الخطأ (النظرة التلفيقية) التى تحاول أن تجمع بين فلسفات وأفكار متنافرة الأصول ، متباينة الغايات ، متعارضة المناهج ، مثل الجمع بين الإسلام والعلمانية ، أو الإسلام والماركسية ، أو الإسلام والرأسمالية ، أو بين الحضارة الإسلامية عموماً ، والحضارة الغربية ، فلا يكون ذلك إلا ضرباً من إضاعة الوقت والجهد ، أو العبث بعقول الناس والتدليس عليهم . سرعان ما ينكشف زيفه .

وقد رأينا فى تراثنا محاولات تلفيقية باءت بالفشل ، مثل محاولات (إخوان الصفا) فى التلفيق بين الدين والفلسفة .

وكثير من النظرات التى نسميها (توفيقية) هى فى حقيقتها (تلفيقية) ولهذا كان نصيبها الإخفاق أيضاً ، مثل محاولات الفارابى وابن سينا – وبعدهما ابن رشد – فى التوفيق بين عقائد الإسلام الثابتة وأفكار أرسطو عن الإله والكون والوجود .

بل حاول الفارابى أن يوفق أو يلفق بين رأيى الحكيمين ، يعنى الفيلسوفين الكبيرين : أفلاطون وأرسطو – رغم اختلافهما المعروف فى المنهج والنظرة – بدعوى أن الحقيقة واحدة لا تختلف . ووحدة الحقيقة أمر مسلم به، ولكن أفكار الباحثين عنها ليست واحدة ، ولا يمكن أن يكون الشىء وضده واحداً .

أما الذى نؤمن به فهو (الاقتباس) و(التطعيم) على أن يظل الأصل غالباً متميزاً . وفرق بين هذا الاتجاه (الاقتباس والتطعيم) وبين اتجاه التوفيق أو التلفيق : أن التطعيم يقتضى أن هناك شيئاً أصيلاً قائماً بذاته ، له جذوره وامتداده وكيانه وخصوصيته ، يطعم بشىء آخر من جنس مقارب له ، ولكن لا يلغيه ولا يغير طبيعته وخصائصه ، أما التوفيق أو التلفيق فيقتضى المعادلة بين طرفين كل منهما أصل بذاته . ولهذا يتعلقان (الاقتباس والتطعيم) بالوسائل لا بالأهداف ، وبالفروع لا بالأصول ، وبالكيفيات المتغيرة لا بالقيم الثابتة .

وقد رأينا مثل الغزالى والراغب الأصبهانى وغيرهما من المفكرين المسلمين يستفيدون من الفلسفة اليونانية كثيراً من تقسيماتها وتحليلاتها ومصطلحاتها ، ولكنهم جعلوا ذلك فى خدمة الفكرة الإسلامية ، والقيم الإسلامية .

على أن أعظم ما فى الحضارة الغربية أمران : العلم التجريبى ، والديمقراطية السياسية .

أما العلم فهو فى الأصل مقتبس من حضارتنا كما شهد بذلك شهود من أهلها (بريفولت ، وجورج سارتون ، وجوستاف لوبون وغيرهم) . فإذا أخذناه فهى بضاعتنا ترد إلينا .

وأما الديمقراطية السياسية ، فأصولها عندنا فى البيعة والشورى ، وحق المسلم بل واجبه ، فى النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتقرير مبدأ المساواة والإخاء بين الناس ، الذين خلقهم الله من ذكر وأنثى ، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا .

وعلى كل حال ، فإن أخذ النافع ، واقتباس الحكمة من أى وعاء خرجت، أمر لا مراء فيه ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن النبى ﷺ : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد : ألا كلّ شىء ، ما خلا الله باطل » وكان لبيد حين قالها من شعراء الجاهلية .

* *

٦ - النظرة التبريرية :

ونعنى بها تلك النظرة التى تقوم على تبرير الواقع القائم ، وهو واقع لم نصنعه نحن ، ولم نفكر فيه ، إنما صنع لنا ، وفرض علينا ، دون اختيار منا ، ولا اعتبار لرأينا ، ولا استشارة لنا .

والذى فرض هذا الواقع هو الاستعمار الذي رأى وقرر ، وصمم ونفذ ، كما فعل ذلك حين قرر إدخال القوانين الوضعية ، وألغى الشريعة الإسلامية ، وعمل بدهاء وتخطيط على (علمنة) الأفكار والمشاعر والتقاليد ، والمؤسسات المختلفة إلى جوار علمنة التشريع .

هذا الواقع الذى ورثناه عن عهد الاستعمار ، نجده فى جوانب كثيرة مناقضًا لأصولنا الإسلامية ، ومواريثنا الثقافية ، ومع هذا يحاول فريق منا أن يمنح هذه الجوانب الدخيلة علينا ، سندًا شرعيًا للاستمرار والبقاء ، وهى زنيمة مقطوعة النسب عن أمتنا وحضارتنا . أى أنهم يريدون أن يخلعوا عن رأس (الخواجة) الأوروبى (قبعته) ويلبسوه (عمامة) إسلامية ! أو (عباءة) عربية !

وما أكثر ما قرأت ، وسمعت من كتابات ومحاضرات ، تركب الصعب والذلول لتفلسف هذا الواقع ، وتبرره دون حجة ناهضة .

وأسخف هذه التبريرات ما حاول أن يستخدم الإسلام نفسه فى تبرير ما يناقض الإسلام ! وذلك فى فترات الهزيمة النفسية أمام زحف الحضارة الغربية ، وهى فى أوج قوتها ونحن فى حضيض ضعفنا ، حتى رأينا من يحاول تحليل

OBEIKAN.COM

الحرام ، وإسقاط الفرائض وتعطيل الشريعة ، باسم الشريعة ذاتها ، حتى حاول هذا التيار يوماً أن يقتحم (الأزهر) نفسه على يد الشيخ على عبد الرازق فى كتيبه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) ، ولكن الأزهر غضب غضبته التاريخية وأخرجه من زمرة العلماء .

إن رفض الإسلام علانية أقرب إلى الجدية من هذا الهزل الذى يلبس لبوس الجد ، وما هو إلا تبرير مكشوف القناع لواقع مرفوض رفضاً كلياً من جمهور الأمة .

* *

النظرة الشمولية للصحوة :

إن الصحوة الإسلامية تنظر إلى هموم الوطن العربى الإسلامى ، نظرة شاملة تتسم بالأصالة والعمق والتميز ، ممتدة فى الماضى ، واعية للحاضر ، متطلعة إلى المستقبل ، وهى تقدم نظرتها لإنقاذ الوطن العربى الإسلامى فى صورة مشروع إحياء متكامل ، يعيد إلى الفرد الثقة والأمل ، وإلى الأمة هويتها وانتماءها ، ويقودها فى طريق الاستقلال الحضارى والتميز الثقافى ، يجمع بين الإيمان الراسخ والعلم المتجدد ، يزاوج بالجديد النافع والقديم الصالح ، تعمل فيه التربية بجانب التشريع ، ويتكامل فيه الجامع والجامعة ، ويلتحم فيه الحاكم بالشعب ، ويتضامن فيه العرب بعضهم وبعض ويربط العرب بالأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط ، مشروع يتخذ الإسلام أساساً والإيمان منطلقاً ، والأخلاق ضرورة ، ويعتبر العلم عبادة ، والعمل فريضة ، والتنمية جهاداً فى سبيل الله ويعبئ قوى الأمة لمعركة التنمية بكل جوانبها الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ويعمل على زيادة الإنتاج وترشيد الاستهلاك وعدالة التوزيع وسلامة التداول ، ويأخذ من الحضارة الحديثة أفضل ما عندها من العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم ، متجنباً ما أصابها من الوهن والانحلال فى نواحيها الإيمانية والأخلاقية والإنسانية ، مما هو أصيل فيها ، ومما هو طارئ عليها ، مستغيثاً بما عندنا عما عندها ، رافضاً نمط حياتها فى الاستمتاع والاستهلاك ، سالكاً سبيل القناعة والاعتدال ، مؤمناً بأن للحياة غايات أكبر من مجرد المتعة والجرى وراء المنافع المادية واللذات العاجلة ، فى ظل تشريع ربانى . تؤمن الأمة بعدالته وقدسيته وكماله وسموه ، وتنقاد لأحكامه طواعية

واختياراً ، بحكم إيمانها ، تشريع يجمع بين المثالية والواقعية ، وبين الفردية والجماعية ، وبين الثبات والمرونة ، وبين الأصالة والتجديد .

مشروع يقوم على تحريك شعوبنا كلها لتتعبد لله بالعمل ، وتفجير طاقاتها المخزونة للإبداع والإتقان ، فى ظل حكومات شرعية دستورية منتخبة انتخاباً حراً نزيهاً وفى ظل نظام شورى (ديمقراطى) حقيقى يسود فيه القانون، ويحس كل فرد فيه بالأمان على نفسه وماله وأهله وحرماته ، ويشعر أنه حر يستطيع أن يقول (لا) بملء فيه ، دون خوف من سياط الجلادين وسجون المستبدين .. نظام يستطيع فيه الشعب أن يلتقى فى المسجد مع حاكمه كل يوم – أو كل جمعة علي الأقل – وأن يرد عليه ولو كان على المنبر ، وأن يقول له ما قيل لابن الخطاب : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا !

مشروع يستنفر الأمة لمقاومة الخطر الإسرائيلى ، والعدوان الصهيونى ، الذى اغتصب الأرض ، وشرد الأهل ، وأذل العرب ، وأهان المسلمين ، وتحدى العالم فلا بد من تعبئة أمة العرب والإسلام ، بإيمان جديد ، يرد إليها روح الحياة وحياة الروح ، ويذكرها بأيام خالد وقطز وصلاح الدين . ويقودها بكلمة التوحيد وصيحة التكبير ، لا بالولاء لفلان وعلان من الناس .

ذلكم هو مشروع الصحوة للإنقاذ والإحياء ، وهو مشروع ليس بالمستحيل ولا بالمتعذر إذا صدقت النيات ، وصحت العزائم ، وفيه وحده النجاة والخلاص،﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١) .

وإنى أؤكد بكل ثقة أننا لن يتم لنا استقلال حقيقى سياسى ، واقتصادى ، ولن نتحرر من التبعية بكل ألوانها ، ولن تستقل لنا شخصية ، ولن يتم لنا انبعاث حضارى حقيقى ، نابع منا ، ومعبر عنا ، منا مبدؤه ، وإلينا منتهاه ، وبنا قيامه ، ولنا ثمراته ، إذا ظللنا للغرب ذيولاً وظلالاً ، منه الإرسال ، ومنا الاستقبال ، منه الفعل ومنا الانفعال ، منه الإنتاج ومنا الاستهلاك ، عليه أن يبدع وعلينا أن نقلد ، عليه أن يغنى وعلينا أن نردد .

إذا ظللنا على هذا المنوال ، فهيهات أن ننشىء لنا حضارة تخصنا .

أغلب الظن أننا سنبقى أسارى لحضارة القوم ، يأخذون تمرها ، ويلقون لنا بنواها ، ويأكلون لحمها ، ويمنون علينا بعظمها .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠١

سنظل نستهلك أدوات الحضارة ولا ننتجها ، نشتريها ولا نصنعها ، سنظل نستورد من الغرب المواد الغذائية التى بها نقيم أودنا ، والأسلحة التى نحمى بها أوطاننا !

سيتفنن الغرب فى استلاب الأموال التى أفاءها الله علينا ، حتى لا نبنى بها شيئًا يغنينا عن الاستيراد ، وينفع أجيالنا التالية ، حتى يدعوا لنا ولا يلعنونا .

سيغرقوننا فى دوامة استهلاكية لا تنتهى ، يأخذون المواد الخام من ديارنا بأرخص الأثمان ، ثم يعيدونها إلينا مصنعة يسيل إليها لعابنا ، فنشتريها منهم بأغلى الأثمان .

حتى ما ليس لنا حاجة إليه يلحون علينا بوسائلهم حتى يخلقوا عندنا حاجات تسوقنا إلى شراء منتجاتهم ، فنشترى ونشترى ونشترى ، حتى نغرق فى بحر من الديون لا قرار له ، ولا شاطئ له .

إننا أحوج ما نكون إلى إنسان يستغنى عما عند القوم من كماليات وتَرَفيات وترفيهيات ، إنسان قادر على ضبط نفسه بالقناعة ، والزهد ، وأن يعيش على نصف بطنه عند اللزوم ، بل يشد الحجر عليها عند الضرورة ، إنسان يقول ما قالت المرأة العربية قديمًا :

لبيت تخفق الأرياح فيـــه   أحب إلى من قصـــر منيف !
ولبس عباءة وتقر عينـــى   أحب إلى من لبس الشفوف !
وأكل كسيرة فى قعر بيتى   أحب إلى من أكل الرغـيف !

إننا نجد مثل هذا السلوك الآن حلمًا بعيد المنال ، ومثالاً مغـرقًا فى الخيال ، بل شيئًا قريبًا من المحال .

وما ذاك إلا لأن الناس أصبحوا عبيداً للعادات الاستهلاكية التى أدخلتها عليهم الحضارة الغربية بأساليبها الماكرة ، وإعلامها الساحر ، ووسائلها الجهنمية المخططة .

ولكن تغيير عادات الناس وسلوكياتهم ليس بالمستحيل ، إذا دخل على الناس إيمان جديد ، يقودهم من داخلهم ، ويخاطبهم من أعماقهم ، ويعينهم على تغيير أنفسهم بأنفسهم .

إن الإيمان الدينى هو الشيء الوحيد الذى يمكنه أن يغير الإنسان تغييراً

OBEIKAN.COM

جذرياً ، وينشئه خلقاً آخر ، جديداً فى أهدافه ، جديداً فى اتجاهه ، جديداً فى منطقه ، جديداً فى أخلاقه ، جديداً فى أسلوبه .

ذكر القرآن لنا نموذجاً بارزاً لهذا التغيير الكلى السريع ، وهو سحرة فرعون حين أعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون ، وقالوا لفرعون ومن معه : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

وذكر التاريخ لنا أعظم مثل لذلك أمة العرب ، كيف كانوا قبل الإسلام ، وكيف صاروا بعد الإسلام .

مر قائد من قواد الفرس على جماعة من جند المسلمين ، فرآهم – بعد أن توضؤوا وتطهروا – يصلون صفوفاً ، وراء إمامهم كالبنيان المرصوص ، كأن على رؤوسهم الطير ، إذا قرأ أنصتوا ، وإذا ركع ركعوا ، وإذا رفع رفعوا ، فقال : أكل كبدى عمر ، لقد علم هؤلاء البداة مكارم الأخلاق ! .

والحق أن الذى علمهم ، وعلم عمر معهم إنما هو الإسلام .

نحن فى حاجة إلى تربية الأمة على نمط حياة جديد ، مستمد من قيمنا ، ومتلائم مع حاجاتنا ، ومتناسب مع إمكاناتنا ، ثائر على نمط الحياة الغربية ، حتى لا يعود تقليدها أكبر همه ، ولا مبلغ علمه ، ولا محور سعيه .

ويسرنى أن أسجل هنا بكل إعجاب كلمة للدكتور جلال أحمد أمين فى (ندوة التراث وتحديات العصر) قال فيها :

« إن إطلاق وصف التنمية على ما حدث وما زال يحدث للاقتصاد والمجتمع العربى لهو وصف أقرب إلى السخرية منه إلى وصف الواقع ، يراد بإطلاقه تسكين الناس وتخديرهم حتى يتمكن الجراح الغربى من إتمام مهمته . الدخل يبدو وكأنه يتعاظم والسلع تتكاثر ، والمدن تتضخم ، والمدارس تتضاعف ، والكبارى العلوية والأنفاق السفلية تبنى وتحفر ، والناس تتدافع فى الطرقات والشوارع والمواصلات العامة وكأنها ذاهبة أو عائدة من أعمالها ، والسفن تأتى بالبضائع وتذهب بغيرها والناس تهاجر وتأتى بالسلع ، والأمر يبدو وكأن تنمية تحدث ، والذي يحدث فى الواقع ليس أكثر من عبث الأجنبى بأمة لا تدرى ما تصنع !

---

(١) سورة طه : الآية ٧٢ .

فالعرب يبيعون رأسمالهم من النفط ويسمون ثمنه دخلاً قومياً ، أو يقبضون رسوماً على ما وهبه الله أو الأجداد لهم ، كقناة السويس والأهرامات وأبى الهول ، ويحسبونها فى عداد الناتج القومى ، ويبيعون الطاعة للأجنبى مقابل الهبات ، ويعقدون القروض لبناء الكبارى العلوية لكى تمر عليها سياراته ، أو لشراء الأسلحة منه ليقاتلوا بها أعداءه ، ويعلمون أبناءهم لغة الأجنبى ليخدموا فى بنوكه وشركاته ، أو يصدرونه للخارج ليشتروا بثمنه أجهزة تعرض فضائح الأجنبى وجرائمه وسخافاته . فإذا قلت لهم : حذار ، إن هذه التنمية معيبة ومشؤومة ، قالوا لك : ما عليك ، إن لدينا خطة خمسية سوف نتدارك بها الأمر ، وإذا بالمخططين يجتمعون لمناقشة ما إذا كان معدل النمو المستهدف يجب أن يكون ٧ بالمائة أو ٧,٥ بالمائة ! فأى أمل يمكن أن يساورنا فى أن يؤدى الاستمرار فى تبنى المنطلقات والمسلمات نفسها إلى وضع أفضل مما نحن فيه ؟ إنما يكمن الأمل فى طرح كل مسلمات التنمية الغربية وبديهياتها للمساءلة والشك ، ولن نجد ما يمكن أن نستلهمه فى ذلك إلا التراث » (١) .

* * *

(١) التراث وتحديات العصر : ص ٧٧٠ ، ٧٧١ .

OBEIKAN.COM